1430هـ/2009م

الاحتراس في القرآن الكريم: دراسة بلاغية

أ.م.د. احمد فتحي رمضان* و م.م. عدنان عبد السلام الأسعد**

تاريخ التقديم: 2008/3/25 تاريخ القبول: 2008/4/2

الاحتراس في اللغة والاصطلاح وتأسيس المصطلح

الاحتراس لغة:

عند دراسة المعنى اللغوي للاحتراس لابد من دراسة الألفاظ المترادفة لهذا الفن فقد ورد عند البعض باسم الاحتراز، وعند آخرين باسم التكميل، وسنحاول في هذا العرض أن نرجع الكلمات إلى أصلها اللغوي من خلال المعاجم ومن ثم محاولة وضع مفهوم لغوي لهذا المصطلح من خلال جذور هذه الكلمات، ونبدأ بالاحتراس، ومعناه في اللغة: التحفظ في انتباه وتيقظ، وهو من الفعل احترس، يقال: حَرَسَ الشيء يَحْرُسُه ويَحْرِسُه حَرْساً حفظه وهم الحُرَّاسُ والحَرَسُ والأَحْراسُ واحْتَرس منه تَحَرَّزَ وتَحَرَّسْتُ من فلان واحْتَرَسْتُ منه بمعنى واحد، أَي تحفظت منه(1)، وأحرس بالمكان أقام به حرساً، قال رؤبة بن العجاج:

كَم ناقَلَتْ مِن حَدَبٍ وفَرْزِ... ونَكَّبَتْ من جُؤْوَةٍ وضَمْزِ
وإِرَمٍ أَحْرَسَ فَوْقَ عَنْزِ... وجَدْبِ أرضٍ ومُناخٍ شَأْزِ(2)

ومنه الحَرَسِيُّ وهم حرس السلطان الذين يرتبون لحفظه وحراسته، والاحتراس دفع الإيهام(3)، وقيل هو أن تسرق الشاة وتؤخذ من المرعى(4).

* قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.
** قسم التربية الإسلامية/ كلية التربية للبنات/ جامعة الموصل.

(1) =: لسان العرب، ابن منظور: 48/6 مادة (حرس)، والقاموس المحيط، الفيروز آبادي: 692مادة (حرس).
(2) =: تاج العروس، الزَّبيدي: 532/15، مادة (حرس).
(3) =: م.ن: 531/15، والمصباح المنير، احمد الفيومي: 129/1 مادة (حرس).
(4) =: غريب الحديث، ابن الجوزي: 204/1، والنهاية في غريب الأثر، الجزري: 367/1.

أما الاحتراز فهو من حرز، يقال: أحرزت الشيء أحرزه إحرازاً إذا حفظته وضممته إليك وصنته عن الأخذ(1)، ومنه الدعاء "اللهم اجعلنا في حرزٍ حارز"أي في كهفٍ منيع (2). **أما التكميل**، فهو التمام أو الإتمام، يقال كَمَل الشيء يَكْمُل وكَمِل وكَمُل كَمالاً وكُمولاً، أي تم، وأكملت الشيء، أتممته، ﭦ ﭧ ﭨﭩ ﭪﭫﭬ ﭭ ﭮﭯﭰ (المائدة:٣)، أي أكملته وأتممته، والكامل ضد الناقص وفوق التام، فالشيء يكون ناقصاً، ثم يصير بعد النقص تاماً، ثم يصير كاملاً بحيث لا يقبل الزيادة(3).

مما سبق ذكره يمكن القول أن الاحتراس أو الاحتراز أو التكميل في اللغة يعني التحفظ وزيادة الكلام حتى يبلغ تمامه وصيانته عن الأخذ. من هذا يمكن أن نفهم المعنى الاصطلاحي الذي وضعه علماء البلاغة لهذا الفن بمسميات مختلفة كما سيأتي في هذا البحث إن شاء الله تعالى.

الاحتراس اصطلاحاً (تأسيس المصطلح):

أورد علماؤنا – رحمهم الله – لهذا الفن البلاغي عدة تعاريف تتشابه في المضمون وإن اختلفت التسميات عند البعض منهم، وتعددت عباراته إلا أنَّه يكاد يتقارب أو يتوحد معناه، فمنهم من أطلق عليه الاحتراس ومنهم من أطلق عليه التكميل ومنهم من سماه الاحتراز. والمتتبع لدلالة الاحتراس عند البلاغيين يجدها تتحد كثيراً في المضمون، وإن اختلفت أحياناً في التسميات.

ومعنى الاحتراس في اصطلاح البلاغيين لا يكاد يخرج عن معناه عند اللغويين إن لم يكن هو أخذاً منه وتطوراً عنه. وسنقوم بعرض موجز لمسيرة هذا النوع من الإطناب حتى استقراره مصطلحاً ومفهوماً.

بداية لابد من الإشارة إلى أن الاحتراس لم يرد على أنَّه باب مستقل عند الأقدمين من البلاغيين، بل كانوا يعدونه من التتميم ومعانيه، وقبل ذلك كان مجرد إشارات سريعة من غير تسميته، في حين ورد على أنَّه باب مستقل عند القزويني

(1) =: لسان العرب: 333/5، مادة حرز، وتاج العروس: 102/15 مادة حرز.
(2) =: النهاية في غريب الأثر: 366/1.
(3) =: العين، الفراهيدي: 378/5، والقاموس المحيط: 1362.

ومن جاء بعده كما سيأتي. ونستطيع أن نجعل الجاحظ (ت 255 هـ) أول من ذكر هذا الفن من غير تسميته وقد مثَّل له بصورة عامة تحت باب (**إصابة المقدار**) وقد طرح في باب الكلم الموزون وإصابة المقادير بعض الشواهد الشعرية التي استخدمها من جاء بعده أمثلة للتكميل أو الاحتراس. منها قول طَرَفة في المقدار وإصابته:

فسقى ديارَك غير مفسدها صوْبُ الربيع وديمةٌ تهمي[1]

فقال الجاحظ معلقاً على هذا البيت: "طلب الغيثَ على قَدْر الحاجة، لأن الفاضل ضارّ، وقال النبيُّ (ﷺ) في دعائه: اللهمَّ اسقِنا سقياً نافعاً، لأنّ المطر ربّما جاءَ في غير إبَّان الزّراعات، وربما جاء والتّمر في الجُرْنِ، والطّعام في البَيادر، وربّما كان في الكثرة مجاوزاً لمقدار الحاجة، وقال النبي (ﷺ): اللهمّ حوالَيْنا ولا علينا"[2]، وهذه تعد أول إشارة إلى هذا الفن البلاغي ومن جاء بعده أخذه منه وطوره وهذا ما نجده عند أبي هلالٍ العسكري (ت395 هـ) فقد سماه باسم التكميل وعده والتتميم شيئاً واحداً وأوردهما تحت باب (**في التتميم والتكميل**) وقال في تعريفه عنه: "وهو أن توفي المعنى حظه من الجودة وتعطيه نصيبه من الصحة ثم لا تغادر معنى يكون فيه تمامه إلا تورده أو لفظا يكون فيه توكيده إلا تذكره"[3]، وأورد تحته كلاماً منه تعليقه على البيت السابق لطرفة بقوله "فقوله (غير مفسدها) إتمام المعنى وتحرز من الوقوع فيما وقع فيه ذو الرُّمة"[4]، من هذا يتبين أنَّ أبا هلالٍ لم يفرق بين التكميل والتتميم وعدهما نوعاً واحداً. وهذا حال من جاء بعده فأبو بكر الباقلاني (ت 403 هـ) لم يفرق بينهما وجعلهما بابا واحداً وعدهما من البديع قال عنه: "كقول نافع بن خليفة:

رجال إذا لم يقبلوا الحق منهم ويعطوه عادوا بالسيوف القواطع

---

(1) ديوان طرفة: 82.

(2) البيان والتبيين: 127/1.

(3) كتاب الصناعتين: 389/1.

(4) م.ن: 390/1.

وإنما تم جودة المعنى بقوله: "ويعطوه". وذلك كقول الله عز وجل: (إن الله عنده علم الساعة) إلى آخر الآية ثم قال: (إن الله عليم خبير)"[1].

أما ابن رشيق القيرواني (ت 465 هـ) فأورده تحت مصطلح (**التتميم والتكميل**) وعدّه نوعاً من أنواع التتميم وليس كل تكميلٍ احتراساً كما عند سابقه وقال عنه: " وبعضهم يسمي ضرباً منه احتراساً واحتياطاً، ومعنى التتميم: أن يحاول الشاعر معنى، فلا يدع شيئاً يتم به حسنه إلا أورده وأتى به: إما مبالغة، وإما احتياطاً واحتراساً من التقصير"[2]. وبعد العسكري والقيرواني أخذ المصطلح يتشكل شيئاً فشيئاً وخرج من تحت التتميم إلى باب مستقلٍ غير التتميم وأول من ميزه من التتميم ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) إذ إنه ذكره تحت اسم "التحرز" أي الاحتراز وقال عنه " أن يأتي بكلام لو استمر عليه لكان فيه طعن، فيأتي بما يتحرز به من ذلك الطعن كقول طرفة:

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمي

فلولم يقل:غير مفسدها لظن به أنه يريد توالي المطر عليها، وفي ذلك فساد للديار ومحو لرسومها"[3].

ويمكننا عدُّ أسامة بن منقذ (ت 584 هـ) أول من أفرد هذا الفن في بابٍ مستقلٍ وأطلق عليه اسم "الاحتراس" وقال عنه: "اعلم أن الاحتراس هو أن يكون على الشاعر طعنٌ، فيحترس منه، كما ٹ ڈ چڈ ڈ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک چ لأنَّ الاشتراك في المصيبة يخفف منها، ويسلي عنها، فأعلمهم تعالى أنّه أول ما يعاقبهم به لا يلهمهم التأسي، ولا يقضي عليهم بالتسلي" [4]، فهذه أول إشارة صريحة في باب مستقل لهذا الفن البلاغي البديع.

وهكذا نجد أنَّ من جاء بعد ابن سنان أخذ يحده بالكلام نفسه تحت مصطلحي التكميل أو الاحتراس، وإن كان بعضهم قد فرق بين المصطلحين، كما فعل ابن أبي الإصبع المصري (ت654هـ) حين أفرد الاحتراس في باب خاص له

---

(1) إعجاز القران: 147.

(2) العمدة في محاسن الشعر وآدابه: 50/2.

(3) سر الفصاحة: 265.

(4) البديع في البديع في نقد الشعر: 90.

وقال عنه: "هو أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه دخل، فيفطن له، فيأتي بما يخلصه من ذلك"[1]، وأفرد التكميل في باب مستقل أيضاً وقال عنه: "وهو أن يأتي المتكلم أو الشاعر بمعنى من معاني المدح أو غيره من فنون الشعر وأغراضه، ثم يرى مدحه بالاقتصار على ذلك المعنى فقط غير كامل، فيكمله بمعنى آخر، كمن أراد مدح إنسان بالشجاعة ورأى مدحه بالاقتصار عليها دون الكرم مثلاً غير كامل، فكمله بذكر الكرم، أو بالبأس دون الحلم، وما أشبهه"[2]، والفرق عنده بينهما أنَّ التكميل لا يكون إلا في المدح أما الاحتراس فيكون في الكلام مدحاً كان أو غيره، والمعنى في التكميل تام قبله وليس هو نفسه مع الاحتراس. وعلى خطى ابن أبي الإصبع سار بدر الدين بن مالك (ت 686هـ) حين فرق بين التكميل والاحتراس فقال عن هذا الأخير: "أن تأتي في المدح وغيره بكلامٍ فتراه مدخولاً بعيبٍ من جهة دلالة منطوقه أو فحواه، فتردفه بكلامٍ آخر لتصونه عن احتمال الخطأ"[3]، وقال عن التكميل: "أن تأتي بشيءٍ من فنون الكلام تراه ناقصاً لكونه مدخولاً بعيب من جهة دلالة مفهومه، فتكمله بجملة ترفع عنه النقص، مثل أن تجيد مدح رب السيف بالكرم دون الشجاعة، أو رب القلم بالبلاغة دون سداد الرأي ونفاذ العزم، فتراه ناقصاً، فتذكر معه كلاماً يكمل المدح ويرفع إبهام الذم"[4]، والمعيار في التفريق عنده هو نفسه عند سابقه، ولا نرى داعياً إلى التفريق والفصل بينهما، فكلاهما واحد كما لا يخفى؛ ولهذا من جاء بعدهم لم يفرق بينهما بل أطلق عليه اسم التكميل أو الاحتراس، وهذا حال القزويني (ت739هـ) فقد استقر عنده المصطلح وعرفه بقوله: "وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه، وهو ضربان: ضرب يتوسط الكلام..... وضرب يقع

(1) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر: 245/2.
(2) م.ن: 245/2 –246.
(3) المصباح في المعاني والبيان والبديع: 224.
(4) المصباح في المعاني والبيان والبديع: 225.

في آخر الكلام"[1] وهذا أوضح وأدق تعريف وتقسيم لهذا الفن؛ لأن الاحتراس يكون من الاحتمال الخاطئ سواء أكان قريباً أم بعيداً. أما الحلبي (ت 725هـ) فقد أورد كلام ابن أبي الإصبع المصري حوله والأمثلة نفسها [2]، أما ابن القيم (ت751هـ) فقد ذكره من غير تسميته بقوله: "هو أن يذكر لفظاً ظاهره الدعاء بالخير والنفع وذلك بما في ضمنه مما يوهم الشر فيذكر كلمة تزيل ذلك الوهم وتدفع ذلك الوهن"[3]، وهذا هو الاحتراس نفسه.

وهكذا استقر المصطلح بعد هذه الفترة وبخاصة بعد القزويني إذ بان المصطلح ووضح، كما هو الحال عند الزركشي (**ت794هـ)**[4]، والسيوطي **(ت911هـ)**[5]، والبغدادي **(ت1093هـ)**[6] والمدني (ت1120هـ)[7]، وغيرهم، إذ لم لم يخرج لا اصطلاحاً ولا مفهوماً عن سابقيهم.

خلاصة القول مما سبق ذكره يتبين أن التكميل والاحتراس هما اسمان أطلقا على مسمى واحد، يدل على زيادة إطنابية في الكلام لفائدة يدفع بها المتكلم إيهاماً اشتمل عليه كلامه. ويكون هذا الاحتراس حينما يأتي المتكلم بكلام يوهم خلاف ما يريد، فيأتي بعده بكلامٍ يدفع به ذلك الإيهام. وسبب تفضيلنا لاسم الاحتراس على التكميل أو التحرز؛ لأن بعض العلماء أطلق اسم التكميل على التتميم، ففضلنا اسم الاحتراس حتى لا يلتبس النوعان على القارئ.

والاحتراس يوجد في أرفع الكلم لتحقيق غرضٍ بلاغي، وقد يوجد في كلام أهل الخطب الارتجالية على سبيل التدارك لما جاء في كلامهم من دخلٍ، ففطنوا إليه فاحترسوا منه تكميلاً[8]. هذه هي مسيرة الاحتراس من أول إشارة له على يد الجاحظ، وحتى استقراره على يد القزويني ومن جاء بعده.

---

(1) الإيضاح في علوم البلاغة: 192.
(2) حسن التوسل إلى صناعة الترسل: 287.
(3) الفوائد المشوق إلى علوم القران: 131.
(4) =: البرهان في علوم القران: 3: 64-66.
(5) =: الإتقان في علوم القران: 199/2.
(6) =: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: 57/9.
(7) =: أنوار الربيع في أنواع البديع: 285.
(8) =: البلاغة العربية أسسها، وعلومها، وفنونها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: 84.

شروط الاحتراس:

إنْ كان بعضهم قد جعل الاحتراس والتتميم شيئا واحداً، والبعض الآخر فرق بينهما، كان لابد لنا من بيان شروط كل فن وصفاته واختلافه عن الآخر لكي لا يُتوهَّم ان كليهما فن واحد، ونبدأ بالاحتراس الذي من شروطه(1):

1. لا يأتي الاحتراس في بداية الكلام، ولا يكون إلا في وسط الكلام أو نهايته.
2. تتنوع صور الاحتراس، فتارة يكون مفرداً بالحرف أو الفعل أو الاسم، وتارة غير مفرد (جملة) فعلية كانت أو اسمية، لها محل من الإعراب، أو ليس لها محلٌ من الإعراب.
3. يأتي لنكتة بلاغية، هي دفع التوهم الموجب للعيب في الكلام.
4. يكون بأساليب عدة منها المقابلة والطباق، والترقي، وغيرها من الأساليب.
5. يكون فضلة واردة في الكلام، وغير فضلة.

أما التتميم فيتوافق مع الاحتراس في بعض الشروط ويختلف عنه في بعضها، إذ أن التتميم يأتي لنكتة ولكنها ليست لدفع التوهم الموجب للعيب في الكلام كما في الاحتراس، ويمكن بيان شروط كل فن من الاحتراس والتتميم في الجدول الآتي حتى يُرى الفرق بينهما:

ت	الاحتراس	التتميم
1	يرد في وسط الكلام وآخره.	يرد في وسط الكلام وآخره.
2	تتنوع صوره في الكلام.	تتنوع صوره في الكلام.
3	يكون فضلة وغير فضلة.	لا يكون إلا فضلة.
4	يكون لنكتة هي دفع التوهم في الكلام.	يكون لنكتة غير دفع التوهم.
5	يجعل الكلام التام كاملاً.	يجعل الكلام الناقص تاماً.
6	يكون متمما ومكملاً لمعاني النفس وأغراض الشعر.	يكون متمماً لمعاني النفس لا لأغراض الشعر.

(1) =: حاشية الدسوقي (ضمن شروح التلخيص): 3/231–233.

من هذا يتبين الفرق بين الاحتراس والتتميم، أنَّ الاحتراس يجعل الكلام التام كاملاً، والتتميم يجعل الكلام الناقص تاماً، والاحتراس لدفع التوهم بخلاف التتميم، والتتميم يكون متمماً لمعاني النفس لا لإغراض الشعر ومقاصده والاحتراس يكملها جميعاً.

بلاغة الاحتراس في الكلام:

يمكن أن نجمل الأغراض البلاغية للاحتراس بما يأتي:

1. الاحتياط، وصيانة الكلام عن احتمال الخطأ وفساد المعنى.
2. إكمال المعنى، ودفع التوهم (الإيهام) الموجب للعيب والنقص في الكلام.
3. المبالغة في المعنى المراد من مدحٍ أو ذمٍ، أو غيرها من المعاني.
4. تحسين الكلام وتجميله من خلال هذه الزيادة الإطنابية.

الاحتراس في الكلام العربي (النثر والشعر):

الاحتراس بوصفه فناً من فنون البلاغة، وطريقة من طرائق الإطناب استعملتها العرب في نثرها وشعرها ليفيد أغراضاً ما كان ت لولا هذا الفن مع ما يفيدهمن دفع الإيهام والشك عن قولها، وسنورد عدداً من الأمثلة لنبين أصالة هذا الفن ووظيفته في الكلام. فمن **أمثلته في الحديث النبوي** ما روته أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– عن النبي(ﷺ) أنه قال لها : (كنت لك كأبي زرع لأم زرع) ثم أنشأ يحدث بحديث أم زرع وصواحبها قال: (اجتمع إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن أن ينعتن أزواجهن ويصدقن، فقالت إحداهن: زوجي عياياء طباقاء كل داء له داء........ قالت الأخرى: زوجي الريح ريح زرنب والمس مس أرنب أغلبه **والناس يغلب**..)[1]، ففي قولها (**والناس يغلب**) احتراس حسن جميل، لأنها لو قالت وأغلبه وسكتت، لقال قائل:إن رجلاً تغلبه امرأة لضعيف [2]، فجاء

---

(1) صحيح البخاري، البخاري، باب حسن المعاشرة مع الأهل، حديث رقم (4893): 1989/5، والسنن الكبرى، النسائي، باب شكر المرأة لزوجها، حديث رقم (9839): 354/5.

(2) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر: 247/2.

قولها (والناس يغلب) احتراساً من ذلك، وناسبت بين قرائنها بجملة تتضمن معنى الاحتراس مما يتوجه على معنى المدح وإبعاد الدخل الذي ينقص به المعنى، وبهذا الاحتراس الحسن أثبتت المرأة لزوجها الشجاعة ولم تنقص من قدره. ومنه أيضاً قوله (ﷺ): ((مَا مِنْ رَجُلٍ يُصَلِّي ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً **غَيْرَ الْفَرِيضَةِ** إلا بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ))[1]، ففي قوله (ﷺ) (غير الفريضة) تكميل واحتراس لئلا يظن احد أن المقصود من هذه الركعات الصلوات الخمس المكتوبات فخرج بقوله (غير الفريضة) إلى النوافل، وفي هذا الاحتراس ترغيب في الحث على إقامة السنن من الصلوات لأنَّ فيها الأجر العظيم الذي لا يخفى كما مر في الحديث.

أما في **الشعر العربي** فأمثلته كثيرة ومتنوعة، منها قول طرفة بن العبد يدعو لأحدهم بمطر نافع:

فسقى ديارك غير مفسدها   صوب الربيع وديمة تهمي

فقوله (غير مفسدها) فضلة واردة (جملة اعتراضية) توسطت البيت الشعري ووقعت بين متلازمين لرفع الإيهام الحاصل ممن يدعو على الديار بكثرة المطر ليكون مفسداً لها، فجاءت هذه الفضلة احتراساً وتكميلاً للمعنى وصيانته عن الفساد، أي احتراس عن المطر الشديد المسترسل الذي يسبب الخراب والدمار للأرض من طمس آثارها ومحو معالمها، فنزول المطر قد يكون سبباً لذلك، والشاعر ذكر في البيت (الديمة) التي معناها (المطر المسترسل)، (وتهمي) التي بمعنى (تسيل) والمطر إذا زاد وكثر كان فيه مضرة لا فائدة، فدفع الشاعر هذا التوهم بقوله (غير مفسدها) وصان المعنى من الخلل والأخذ الذي لولا هذا الاحتراس لكان[2]. ومثله قول جرير:

فسقاك حيث حللت غير فقيدةٍ   هزج الرواح وديمة لا تقلع[3]

(1) صحيح ابن حبان، ابن حبان، باب النوافل، حديث رقم (2451): 204/6.
(2) =: سر الفصاحة: 265، والبديع في البديع: 91.
(3) ديوان جرير: 244.

ففي قوله (غير فقيدة) احتراس، ذلك انه جرت العادة أن يدعى للغائب الميت بالسقي، فجاء قوله (غير فقيدة) تكميل لما أراد من دنوها وسقياها غير راحلة ولا ميتة[1]. ومنه أيضاً قول ابن المعتز يصف الخيل:

وخيل طواها السير حتى كأنها أنابيب سمر من قنا الحطِّ ذُبَّلُ

صببنا عليها ظالمين سياطنا فطارت بها أيد سراع وأرجل [2]

فقوله (ظالمين) فضلة واردة معترضة بين الفاعل ومفعوله جاءت وسط الشطر الأول من البيت الثاني لتفيد معنى الاحتراس والتكميل، فلو لم يذكر (ظالمين) لأوهم من ان هذا الضرب نتيجة بطئهافي المشي وثقلها في السير، أو كونها متبلدة لا تجري إلا بالضرب، فأنهى وقطع بقوله (ظالمين) سؤالاً معترضاً بقوله: إنما ضربت هذه الخيل لبطئها، وهذا خلاف المقصود لأنَّ المقام مقام مدحٍ كما لا يخفى[3]. **ومن أمثلة هذا الفن أيضاً قول كعب الغنوي من قصيدةٍ له في رثاء أخيه أبي المغوار:**

حَليمٌ إذا ما الحِلمُ زَيَّنَ أَهلَهُ مَعَ الحِلمِ في عَينِ العَدُوّ مَهيبُ [4]

ففي قوله (إذا ما الحلم زين أهله) احتراس من وقوع الإيهام من أن يكون حلمه ناتجٌ عن عجزٍ، فأزال الاحتراس هذا الوهم، إذ لولاه لكان المدح مدخولاً فبعض التغاضي قد يكون من عجزٍ، وإنما يزين الحلم أهله إذا كان عن قدرة، ثم رأى أن يكون مدحه بالحلم وحده غير كامل، لأنه إذا لم يُعرف منه إلا الحلم طمع فيه عدوه فاحترس احتراساً ثانياً بقوله (**في عَينِ العَدُوّ مَهيبُ**)[5]. ومنه أيضاً **قول عنترة بن شداد:**

أَثني عَلَيَّ بِما عَلِمتِ فَإِنَّني سَمحٌ مُخالَقَتي إذا لَم أُظلَمِ [6]

---

(1) =: معجم البلاغة العربية، بدوي طبانة: 186/1.

(2) ديوان ابن المعتز: 364.

(3) =: سر الفصاحة: 266.

(4) جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي: 134.

(5) =: حسن التوسل إلى صناعة الترسل، الحلبي: 288.

(6) جمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي: 147.

فقوله (**إذا لم اظلم**) احتراس، دلَّ به على انه قد يخالف فيرجع إلى الحق والصواب راضياً، ولكنه لا يقبل الظلم على نفسه، فدل بهذا الاحتراس على عفوه وسماحته في الحق من غير الانتقاص من شجاعته [1]. ومن أمثلته **قول الحماسي:**

وما مات منا سيد في فراشه ولا طُلَّ منا حيث كان قتيل[2]

فانه لو اقتصر على وصفهم بشمول القتيل إياهم لأوهم هذا أنَّ ذلك لضعفهم وقلتهم، فصدر البيت وان تضمن وصفهم بالإقدام والصبر ربما أوهم العجز والضعف؛ لان قتل الجميع يدل على الوهن والقلة، فأزال هذا الوهم بالاحتراس بوصفهم بالانتصار على من قاتلهم وبأخذهم الثأر، فكمل حسنه في قوله (ولا طُلَّ منا حيث كان قتيل)[3]، ومنه قول أبي الطيب المتنبي:

وَتَحتَقِرُ الدُنيا اِحتِقارَ مُجَرِّبٍ يَرى كُلَّ ما فيها وَحاشاكَ فانِيا[4]

فقوله (**حاشاك**) احتراس من دخوله كل من ما فيها[5]، ومنه قوله أيضاً:

إِذا خَلَت مِنكَ حِمصٌ لا خَلَت أَبَداً فَلا سَقاها مِنَ الوَسمِيِّ باكِرُهُ[6]

باكِرُهُ[6]

ففي قوله (**لا خلت أبداً**) احتراس وتكميل من توهم الدعاء عليه [7]. وغيرها من الأمثلة التي ورد فيها هذا النوع من الإطناب–الاحتراس–لا يسع المقام لذكرها، وكلّ ما مضى يبين أصالة وجمالية هذا الفن البلاغي في أدائه ودفعه كل ما يشوب الكلام من عيبٍ ونقصٍ، كما تبين هذه الأمثلة أصالة هذا الفن في الكلام

---

(1) =: علم المعاني، درويش الجندي: 184.

(2) =: حسن التوسل إلى صناعة الترسل: 288.

(3) =: م.ن: 288.

(4) ديوان المتنبي: 339.

(5) =: إعراب القران الكريم وبيانه، محي الدين الدرويش: 432/3.

(6) ديوان المتنبي: 37.

(7) =: إعراب القران الكريم وبيانه: 432/3.

العربي فقد ورد في كلام أفصح الفصحاء وابلغ البلغاء سيدنا محمد (ﷺ) وفي الشعر العربي، وان العرب استعملته في كلامها نثراً وشعراً، لتؤدي مقاصد ما كانت لتؤديها لولا وجود هذا النوع البديع من الإطناب.

الاحتراس في القران الكريم:

قسم البلاغيون الاحتراس إلى قسمين وذلك بحسب موقعه من الكلام، فقالوا بأنه ضربان: ضربٌ يتوسط الكلام وضرب يأتي في نهايته، غير أننا لا نرى في هذا التقسيم الثنائي جمالية ودلالة لما يؤديه الاحتراس من وظائف في الكلام ما كانت لولاه، لذا ارتأينا تقسيمه بعد جمع شواهده في القران الكريم، والاطلاع عليها والتأمل فيها إلى أربعة أقسام:

1. **الاحتراس الضدي**، أي أن يكون لفظ الاحتراس ضد لفظ المحترّس منه.
2. **الاحتراس التكميلي**، أي أن يكون لفظ الاحتراس مكملاً ومتمماً للمعنى.
3. **الاحتراس التهكمي**، أي أن يكون في لفظ الاحتراس تهكم وسخرية.
4. **الاحتراس المترقي**، أي أن يكون في لفظ الاحتراس مترقياً عن اللفظ المحترس منه وأعلى درجة.

وسنقوم ببيان كل واحد من هذه الأقسام، ونورد تحته مثالين نبين من خلالهما جمالية هذا الفن مع ذكر الأمثلة المتناظرة لكل قسم في الهامش على سبيل المثال لا الحصر.

أولاً. الاحتراس الضدي:

من أمثلة هذا النوع في القران الكريم[1] قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ** يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } (المائدة54).

(1) ينظر على سبيل التمثيل قوله تعالى في: (البقرة/139)، (البقرة/284)، (آل عمران/ 46)، (الأنعام/103)، (الإسراء/83)، (الإسراء/110).

تخاطب هذه الآية الكريمة المؤمنين على وجه التحذير والوعيد، من انه من يرتد منهم عن دينه، ويرجع عن الحق الذي تمسك به ويبدله بغيره، وينقلب من الإيمان إلى الكفر، فإنَّ الله غنيٌّ عنه وسيأتي بقومٍ آخرين مكانهم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ويعد الارتداد هنا من الغيبيات التي اخبر عنها القرآن قبل وقوعها، فكأنها تحذير من أمر واقع في المستقبل القريب كما حصل مع مسيلمة، وأسود العنسي وغيرهم من العرب ممن ارتدوا عن طريق الحق والصواب فضلوا وأضلوا.

وهذه الآية جمعت صفات الأمة الإسلامية التي على الحق والهداية أمثال الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم وبفهمهم، بل ان هذا الوصف جاء مدحاً لهم؛ لأنَّ المؤمنين الذين كانوا مع النبي عليه الصلاة والسلام، هم حينها فئة الحق ونشروا الإسلام، فلا يليق بهم إلا إظهار الغضب لله، والحب في الله والبغض في الله، وهم أقوى المؤمنين إيماناً فلا جرم أن يكونوا أعزة على الكفار الذين يعادونهم ولا يخشوهم، وفي مقابله أذلة لينون على إخوانهم من المؤمنين، وجاء الجمع بين هاتين الصفتين (**الذل–العز**) على سبيل الاحتراس لتكتمل صفاتهم في أعلى درجاتها ورفعتها، فهذا الفن البليغ جاء في الآية ليدفع الإيهام الذي كان ليحصل لولا وجوده، من إثبات كمال الصفات لهذه الطائفة المختارة، فبعد أن وصفهم سبحانه وتعالى بأنه يحبهم ويحبونه ذكر بأنهم (أذلة على المؤمنين)، وأذلة كما لا يخفى جمع ذليل الذي هو ضدُّ العزيز، كما يقال رجل ذليل في القوم أي غير عزيز، فدفع ما قد يشوب هذا الوصف للمؤمنين من أن أحدهم قد يتصور أن هذا الذل هو من ضعف وجبن واستكانة، فدفعه بما يضاده ويقابله في اللغة بقوله: (أعزة على الكافرين)، فكانت هذه الجملة احتراساً مما قد يشوب الآية من نقصٍ وعيب فانه لما كان وصفهم بالذلة يوهم انه من ضعفهم دفع هذا الإيهام بضده بقوله (أعزة على الكافرين)، ليبين أن ذلتهم في جانب المؤمنين ما كانت إلا تواضعاً منهم، بدليل أنهم أعزة على الكافرين، أي أشداء

أقوياء عليهم، ولهذا عدي (الذل) بحرف الجر (على) مع انه يتعدى باللام، وذلك لتضمينه معنى العطف فكأنه قال: عاطفين على وجه التذلل والتواضع لإخوانهم، وهذا مما يميز المؤمنين عن غيرهم؛ لأنَّ شرف الإخوة بشرف التقوى والإيمان والعمل الصالح وحسن التواضع وكرم الخلق الذي يجعل صفَّ الجماعة والمؤمنين كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وهذا مما يؤيد أن ذلتهم ليست قائمة على الضعف بل هي قائمة على التواضع والعطف على المؤمنين [(1)]، ويجوز أن يراد بهذه التعدية الدلالة على انهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم، خافضون أجنحتهم للمؤمنين، ومما يعضد هذا المعنى ما ورد عنه (ﷺ) قوله عن المؤمنين وصفاتهم: "**الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ يَرُدُّ مُشِدُّهُمْ عَلَى مُضْعِفِهِمْ وَمُتَسَرِّيهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ**"[(2)].

وفي هذا الاحتراس في الآية بالجمع بين النقيضين إرشاد وتعليم للمؤمنين وبيان حالهم مع بعضهم ومع عدوهم، من خلال حسن تعامل أبنائه بعضهم مع بعض ورحمة بعضهم ببعض، وتكافلهم وتناصرهم، واتساع صدورهم لإخوانهم، فالأخ الذي يضيق ذرعاً بإخوانه، ولا يحسن حوارهم ومخاطبتهم، لا يتحلى بهذا الخلق وهكذا، بل تراحمهم فيما بينهم هو الذي يزيدهم قوة ليقفوا وقفة العز والكرامة في وجه أعداء الله والإسلام، ومكرهم وكيدهم للمسلمين، وهذا ما عبر عنه شاعر الإسلام محمد إقبال بقوله[(3)]:

يبتسم المسلم في سلمه … عن رقة الماء ولين الحرير
وتبصر الفولاذ في عزمه … إذا دعى الداعي ونادى النفير

ومما يعضد معنى الاحتراس ويقويه قوله تعالى (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) فثبتت لهم بهذه الآيةأحسن الصفات من شجاعة وقوة وبأس

(1) =: الكشاف، الزمخشري: 296، والإيضاح في علوم البلاغة: 181، وعلم المعاني، درويش الجندي: 183-184.
(2) صحيح البخاري، باب في الديات والعقل، حديث رقم (663): 260/1.
(3) =: خصائص الأمة الإسلامية الحضارية كما تبينها سورة المائدة، د. إبراهيم الكيلاني: 165.

وغيرها من صفات الرجال بأنهم يدافعون عن حمى الله ورسوله ويذودون عن أعراض المسلمين ولا تأخذهم في نصرة دينهم لومة لائم. وهذا كله بفضل الله ومنّه عليهم فهو الذي يزيدهم قوة وإيماناً، وهو الذي أحبهم فثبتهم على الحق، فلا ينبغي لمسلم–كما تنبّه الآية–أن يغفل عن فضل الله ومنّته، وما يقتضيه من شكره وعبادته، وهذا ما يدعو المؤمنين لنيل فضل الله ونصرة دينه [1]. وفي تنكير **(لومة)** في قوله (وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ) بلاغة لا تخفى فكأنه قيل لا يخافون شيئاً قط من لوم أحد من اللائمين، فهم لا يبالون بمن لامهم أياً كان لأنهم أشداء صُلَّاب في دين الله لا يخافون فيه أحداً[2].

ومن أمثلة هذا النوع من الاحتراس الضدي قوله تعالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ **أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ** تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} (الفتح29). وهذه الآية تشبه سابقتها من حيث المعنى، فهي تصف الرسول محمد (ﷺ) وأصحابه بأجمل صورة وأبلغها عن طريق التشبيه التمثيلي البليغ إذ انه ضرب لهم مثلاً بزرعٍ مباركٍ، نما بسرعة في أرضٍ طيبة، فأخرج (شطأه) فراخه وفروعه، واشتد فظهر فيه الحب (فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ) فقوي الزرع حتى صار غليظاً، بعد أن كان دقيقاً (فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ) فوقف الزرع بنفسه، واستقام على أصوله، ونبت فيه الحب وازدهر (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) حتى يعجب هذا النبات الفلاحين لقوته وكثرته وحسن نباته، ليغتاظ بهم أعداء الله تعالى، وهذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب الرسول كانوا قلة فكثروا، وضعفاء فقواهم الله تعالى، حتى عز بهم دينه، وصار الإسلام كالطود الراسخ، وانتشر في آفاق الدنيا، يملأ الأرض خيراً وعدلاً، ونوراً وبراًّ، ولم يزل أمرهم يزداد يوماً بعد يوم،

---

(1) =: خصائص الأمة الإسلامية الحضارية كما تبينها سورة المائدة: 166.

(2) =: الكشاف: 296.

حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً ولما كان وجه التشبيه صورة منتزعة من متعدد، سمي تشبيها تمثيلياً، فالزرع محمد عليه الصلاة والسلام، والأفراخ أصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وهو مثلٌ بديع في غاية الحسن والجمال [1].

وفي هذه الآية جاء الاحتراس في قوله (**رُحَمَاء بَيْنَهُمْ**) بالطريقة نفسها التي جاء بها في المثال الأول في آية المائدة غير أنَّ هذا الاحتراس عكس المثال الأول، لأنَّ فيه استدراكاً من ضعفٍ، أما هذا ففيه استدراك من قسوة، وفي هذه الآية الكريمة لو لم يذكر (**رُحَمَاء بَيْنَهُمْ**) لوقع في بعض النفوس من أنَّ هؤلاء المؤمنين أجلاف وقساة في التعامل، فدفع هذا الإيهام بالاحتراس بقوله (**رُحَمَاء بَيْنَهُمْ**) فعلم بهذا الفن واكتمال الوصف بالمقابلة بين النقيضين الشدة والرحمة، أن سبب شدتهم هو عدم موالاتهم لأهل الكفر، ولاسيما أن كفار مكة في بداية الدعوة كانوا شديدي القسوة على المؤمنين، فعاملهم القران بالمثل [2]، فضلاً عن أن في هذا الاحتراس اكتمالاً لصفات المؤمنين كسابقتها فـ" في الجمع لهم بين هاتين الخلتين المتضادتين الشدّةِ والرحمة إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الرؤية"[3]. ويجوز أن يكون الاحتراس بجملة (أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ) فيكون من الاستدراك من الضعف، يعني أنهم يستعملون الشدة في مواضعها، ويستعملون اللين في مواضعه . وفي تعليق (رحماء) مع ظرف (بين) المفيد للمكان الداخل وسط ما يضاف هو إليه تنبيه على انبثاث التراحم فيهم جميعاً كما قال النبي (ﷺ): "**تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إذا اشْتَكَى عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**"[4] وهذه الصفات هي صفات المؤمنين الكُمَّل ان أحدهم يكون متواضعاً لأخيه متعززاً على عدوه[5].

---

(1) =: الإبداع البياني في القران الكريم. محمد علي الصابوني: 311 –312.

(2) حدائق الروح والريحان في روابي علوم القران، محمد الأمين الهرري: 327/27.

(3) التحرير والتنوير، ابن عاشور: 173/26.

(4) صحيح البخاري، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم (5665): 2238/5.

(5) =: التحرير والتنوير: 173/26.

ومن بلاغة هذه الآية وفصاحتها أنها جمعت حروف الهجاء العربية جميعاً[1]، وليس في القران آية جمعت حروف الهجاء جميعاً سوى هذه الآية وآية آل عمران {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ ..... وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} **(آل عمران154)**. وفي ذلك بشارة تلويحية مع ما فيها من البشائر التصريحية باجتماع أمرهم، وعلى نصرهم رضي الله عنهم.

ثانياً. الاحتراس التكميلي:

ومن أمثلته في القران الكريم[2] قوله تعالى:{وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ **وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** } (هود44).

تعد هذه الآية تكميلاً لمشهد الطوفان العظيم الذي عمَّ أنحاء الأرض، وحلَّ بمن في الأرض حينها على عهد نوح (عليه السلام) حين عصاه قومه واستحبوا الكفر والضلال على الإيمان، فأهلكهم الله سبحانه وتعالى كلهم أجمعين، وأنجى نوحاً (عليه السلام) ومن معه في السفينة، فجاء التعبير القرآني البليغ بأسلوب يعجز عنه جميع البشر في هذه الآية الكريمة.

وجمعت هذه الآية من فنون البلاغة ما جمعت، بل بلغت من أسرار الإعجاز غايتها، حتى أنَّ ابن المقفع قال بحقها أشهد أنَّ مثل هذا الكلام لا يستطيعه أحدٌ من البشر، ولا يأتي بمثله، وقال عنها ابن أبي الإصبع المصري: وما رأيت ولا رويت في الكلام المنثور، والشعر الموزون، كآية من كتاب الله تعالى، استخرجت منها واحداً وعشرين فناً من فنون البديع، مع أن عددها سبع

(1) =: حدائق الروح والريحان في روابي علوم القران، محمد الأمين الهرري: 327/27.
(2) ينظر على سبيل التمثيل قوله تعالى في:(البقرة/25)، (البقرة/100)، (آل عمران/73)، (آل مران/111)، (النساء/ 92)، (النساء/ 116)، (المائدة/ 18)، (الأنعام/ 92)، (الأنعام/ 132).

عشرة لفظة فقط، ففيها من البديع ما فيها من مناسبة واستعارة واحتراس وغيرها من الفنون البلاغية[1].

وفي الآية كمال القدرة الإلهية من خلال مناداة الأرض والسماء بما ينادى به أولو العلم والتمييز، وأمراً بما يؤمرون به، تمثيلاً لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما بالأمر المطاع الذي يأمر المنقاد لحكمه المبادر إلى امتثال أمره، مهابة من عظمته وخشية من أليم عقابه[2].

وقبل ذكر الفن الذي من أجله أوردنا الآية الكريمة نذكر بأنَّ علماء البلاغة قد اهتموا بهذه الآية واظهروا لطائفها وأسرارها، على نحو يظهر بلاغتها وإعجازها[3].

وإذا أخذنا من فنون الآية (الاحتراس) في قوله تعالى (**وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**) نرى فيه خاتمة تمَّ بها عقد المنفعة وتمام فائدة هذه الآية الكريمة، فإنه عز وجل لما أخبر بهلاك من على الأرض من الكافرين أعقبه بالدعاء على الهالكين، وهذه جملة دعائية لا يخفى ما أدته عن طريق الاحتراس من الدلالة على عموم هلاك الكفرة بل على عموم هلاك أهل الأرض عدا أهل السفينة [4]، ووصف سبحانه وتعالى المغرقين بالظلمة ليعلم أن جميع من هلك كان مستحقاً للعذاب مستأهلاً له، واحتراساً من ضعيف يتوهم أن الهلاك بعمومه قد شمل من لا يستحق العذاب، فلما دعا على الهالكين ووصفهم بالظلم علم أن كل من هلك كان مستحقاً لما نزل بهم وحلَّ بساحتهم، لأنه عزَّ وجلَّ ثبت بالبرهان انه عادلٌ، فلا يدعو إلا على من يستحق الدعاء، ووصفهم بعد الدعاء عليهم بالظلم، فان لم يكونوا ظالمين، فقد دخل خبره الخلف، وخبره منزه عن ذلك، فوقع هذا الدعاء، وهذا الوصف احتراساً من ذلك الذي قدر توهمه[5].

(1) =: الإبداع البياني في القران الكريم: 140 –141.

(2) =: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي: 458/1.

(3) =: دلائل الإعجاز، الجرجاني: 1: 53.

(4) =: روح المعاني في تفسير القران والسبع المثاني، الالوسي: 62/12.

(5) =: إعراب القران الكريم وبيانه: 431/3.

وظهر من هذه الآية (إغراق الكافرين) صدق وعده سبحانه وتعالى لنبيه نوح (عليه السلام) وانجازه لوعده الذي قال سبحانه وتعالى فيه: (وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ) (هود37)، بعد أن دعى عليهم نوح عليهم السلام بقوله: {رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً } (نوح26). ومما سبق ذكره يتبين ما في الآية من غاية الفصاحة لفخامة لفظها وحسن نظمها والدلالة على كنه الحال مع الإيجاز الخالي عن الإخلال، وإيراد الأخبار على البناء للمجهول دلالة على تعظيم الفاعل، فانه متعين في نفسه مستغنٍ عن ذكره، لايذهب الوهم إلى غيره، للعلم بأن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليها سوى الواحد القهار(1).

ومن أمثلة هذا النوع أيضاً من الاحتراس قوله تعالى مخاطباً نبيه موسى (عليه السلام) بقوله ﴿**وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى** ﴾ (طه:22)

تعرض هذه الآية معجزة من معجزات نبي الله موسى (عليه السلام) بعد أن أرسله ربه إلى فرعون وقومه، وجاءت هذه الآية بعد انقلاب عصاه حية عندما ألقاها على سحر السحرة، فأُمر (عليه السلام) بعدها بأن يُدخل يدَه في جيبه، ومعنى الآية: أدخل يدك تحت إبطك ثم أخرجها تخرج نيرة مضيئة كضوء الشمس والقمر من غير عيبٍ ولا برص، قال ابن كثير: "كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر من غير برصٍ ولا أذىً"(2).

وجمعت هذه الآية كسابقتها من فنون البلاغة ما جمعت من احتراس وكناية واستعارة واحتباك وغيرها من الفنون، وسنتناول أولاً ما يخص بحثنا وهو الاحتراس في قوله ﴿**مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**﴾، فعندما ذكر سبحانه وتعالى: ﴿**وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء** ﴾، يلاحظ في بداية الآية انه قال (واضمم) وهذا أمر بالإدخال، ثم قال (تخرج بيضاء) وهو أمر بالإخراج، والذي يفهم منه انه عند دخولها لم تكن بيضاء، ولكنه عندما أخرجها "خرجت بيضاء تشف وتضيء كأنها

(1) =: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 458/1.
(2) تفسير القران العظيم: 146/3.

شمسٌ"[1]، وبما أنها حالة مفاجئة مغايرة لسابقتها، احترس بقوله (من غير سوء) وهذا الاحتراس كمل الآية وأتمها وصانها عن العيب والأخذ، فلو اقتصر (سبحانه وتعالى) على ﴿**وَاضْمُمْ يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء** ﴾ وسكت على (بيضاء) لأوهم أن هذا البياض كان من برصٍ أو بهاق أو مرضٍ، فجاء الاحتراس بقوله ﴿**مِنْ غَيْرِ سُوءٍ**﴾ تكميلاً لبيان أنَّ هذا البياض لم يكن من مرضٍ أو غيره [2]، وختمت الآية بهذا الأسلوب البليغ ليفيد بأنَّ هذا البياض معجزة وآية من آيات الله وأنها ليست من مرضٍ أو غيره.

وجمعت هذه الآية مع الاحتراس فنوناً أخرى منها الاحتباك، إذ ذكر (اضمم) في الجملة الأولى دليلاً على حذف ضده في الثاني وهو (أخرجها)، وذكر (تخرج بيضاء) في الجملة الثانية دليلاً على حذف ضده في الأول وهو (تدخل غير بيضاء) وبهذا وقع حذفٌ من الطرفين وكلٌّ من المذكور يدل على المحذوف، وعليه يكون تقدير الآية الكريمة: واضمم يدك إلى جناحك <u>تنضم غير بيضاء</u> <u>وأخرجها</u> تخرج بيضاء من غير سوء [3]. ومن الفنون البلاغية في الآية (الاستعارة التصريحية) في قوله ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ ﴾، فإن أصل الجناح للطائر، ثم استعير لجنب الإنسان، لأن كلَّ جنبٍ في موضع الجناح للطائر، فسميت الجهتان جناحين بطريق الاستعارة التصريحية[4].

كما أنّ ضم الجناح كنايةً عن التجلد والضبط، وهو مأخوذ من فعل الطائر عند الأمن بعد الخوف، وهو في الأصل مستعار من فعل الطائر عند هذه الحالة، ثم كثر استعماله عند التجلد وضبط النفس حتى صار مثلاً فيه وكناية عنه[5]. وفي الآية الكريمة كناية أخرى جاءت في موطن الاحتراس حيث كنى بالسوء عن البرص أو البها ق، فالسوء الرداءة والقبح في كل شيء، وبما أن

---

(1) البحر المحيط: 222/6.
(2) =: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني: 803/2 –804.
(3) =: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي: 222/6.
(4) =: الإبداع البياني في القران الكريم: 198.
(5) =: صفوة التفاسير: 803/2، وروائع الإعجاز في القصص القرآني، محمود السيد حسن: 313.

البرص هو أبغض شيء عند العرب، وبهم نفرة عظيمة منه، كان جديراً أن يكنى عنه بقوله (من غير سوء)(1).

وقد أورد الزمخشري في الكشاف في هذه الآية من فنون الإعجاز البلاغي بقوله: "وفيها معنيان أحدهما:أن موسى (عليه السلام) لما قلب الله العصا حية: فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء فقيل له: إن اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء . فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمران : اجتناب ما هو غضاضة عليك وإظهار معجزة أخرى. والمراد بالجناح: اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر. وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى فقد ضم جناحه إليه. والثاني: أن يراد بضم جناحه إليه: تجلده وضبطه نفسه. وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعارة من فعل الطائر لأنه إذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما. وإلاّ فجناحاه مضمومان إليه مشمران"(2).

ومن خلال هذه الآية نرى بلاغة القران الكريم بأعلى درجاته المتمثلة بوحدة النص القرآني وتماسكه، وفي مطابقته للواقع مع فصاحته، من خلال تواشج الفنون البلاغية فيما بينها من احتراس واحتباك وكناية واستعارة، ومن خلال هذا الإيجاز المتمثل بالاحتباك، والإطناب المتمثل بالاحتراس، والبيان المتمثل بالاستعارة والكناية صيغت هذه الآية بأعلى صور الفصاحة والبلاغة، فحيث انه جاء بالاحتباك بحذفه من كل جملة ما أثبت نظيره في الثانية من غير تأثير على جمالية ونظم الآية، بل إن هذا الحذف هذَّب العبارة لأن المعنى الذي يدركه الفهم إدراكاً قوياً مع حذف الألفاظ الدالة عليه، يكون ذكره فضولاً يتنزه عنه البيان الحكيم، وهذا هو غاية الفصاحة والبيان لهذا الكتاب المعجز. في مقابل هذا الإيجاز جاء الإطناب بالاحتراس الذي لو لم يذكر لذهب بمن يقرأ هذه الآية أن هذا البياض قد ازداد حتى صار برصاً فذكر ما يستوجب الذكر دفعاً لذلك التوهم.

---

(1) =: إعراب القران الكريم وبيانه: 4/674 – 675.

(2) الكشاف: 800.

وهذه هي بلاغة الكلام في مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، فحذف في الموطن الذي يستلزم الحذف، وأبقى وذكر في الموطن الذي يوجب الذكر.

ثالثاً. الاحتراس التهكمي:

ومن أمثلته في القران الكريم(1) قوله تعالى: (وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ{41} فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ{ 42} وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ{ 43} **لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ** {44} إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ{ 45} وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ{ 46}) (الواقعة:41-46).

تعرض هذه الآيات حال أهل الشمال من الكافرين الذين كانوا في الدنيا مترفين متنعمين بين أهلهم سالمين، لا يؤمنون بالله ولا وعده، بل كانوا بآياته يسخرون، ومن رسله يستهزئون، فجاء الجواب من جنس العمل حين صورهم في لوحة ساخرة عالية من السخرية والتهكم بهؤلاء الكفرة الطغاة المتجبرين في الدنيا المتكبرين على الله ورسله، حين قابلهم بأصحاب اليمين وما أعده لهم عز وجل من النعيم المقيم في جنانه ليزيد لهم العذاب، فاستعمل معهم الألفاظ نفسها من حيث الشكل غير انه عز وجل جاء بها للتهكم بهم والسخرية منهم. فحين وصف مسكن وطعام أهل اليمين في الجنة من ظلٍ ممدود وغيرها بقوله (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ{27} فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ{28} وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ{29} وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ{30} وَمَاء مَّسْكُوبٍ{ 31} وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ{32} لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ{ 33}) من نفس السورة، جاء بوصف حال أصحاب الشمال في جهنم ليزيد من التهكم بهم.

ومما زاد هذا التهكم استخدامه فناً من فنون البلاغة في الآية ألا وهو الاحتراس بصورته التهكمية ليوغل بالسخرية منهم، فعندما ذكر عز وجل (وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ) في مقابل ذكره الظل مع أصحاب اليمين بقوله (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ)، ربما يوهم أن هذا الظل كسابقه، أو هو كسائر ظلال الدنيا ربما جلب لهم شيئاً من

(1) ينظر على سبيل التمثيل قوله تعالى في: (الفرقان/ 69)، (الشورى/45)، (الدخان/38-39)، (محمد/12)، (الواقعة/44)، (المرسلات/30-31).

الراحة بعد التعب، والمشقة والعذاب، دفع هذا التوهم واحترس بقوله (لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ) ليزيد من التهكم بهم بنفي صفتي الظل عنه، أي انه ظل ولكن ليس كسائر الظلال التي تنشر البرد والروح، وتجلب النفع لمن يأوي إليه، ويتفيأ تحته، ليمحق بهذا الاحتراس الجميل البليغ ما في مدلول الظل من الاسترواح إليه ويدفع التوهم الذي ربما يحصل لولاه وليزيد من التهكم بهم بأنهم لا يستحقون الظل كأصحاب اليمين. فهو ظل حار ضار لا ينفعهم بل يضرهم ويزيد من عذابهم [1]، لأن حق الظاهر أن يقال: وظل حار فعدل إلى ما جاء في الآية، ليتبادر إلى الذهن أولاً: من لفظ الظل المتعارف فيطمع السامع، فإذا نفى عنه ما هو المطلوب من الظل وهو البرد والاسترواح جاءت السخرية والتهكم والتعريض بأنَّ الذي يستأهل الظل الذي فيه برد وإكرام غير هؤلاء، فيكون أشجى لقلوبهم، واشد لتحسرهم [2]، وقال البقاعي موضحاً لهذا الاحتراس: "ولما كان المعهود من الظل البرد والإراحة، نفى ذلك عنه فقال: {لا بارد} ليروح النفس{ولا كريم} ليؤنس به ويلجأ إليه ويرجى خيره ويعول في حال عليه بأن يفعل ما يفعله الواسع الخلق الصفوح من الإكرام، بل هو مهين، سماه ظلاًّ لترتاح النفس إليه ثم نفى عنه نفع الظل وبركته لينضم حرقان: اليأس بعد الرجاء إلى إحراق اليحموم فتصير الغصة غصتين"[3].

ومما زاد هذه الصورة الساخرة بهم حالهم في النار فهم في (سموم وحميم) هواء وماء حارين، الهواء شواظ ساخن ينفذ إلى المسام ويشويها، والماء متناه في الحرارة لا يُبرد ولا يروي، وبعده ظل ولكنه ليس كغيره كما مر، ظل من الدخان اللافح الخانق، ظل ساخن وهو كذلك كَزٌّ بخيل، لا يحسن استقبالهم، ولا يهيئ لهم الراحة بل خلاف هذا، وكل ما مر جزاء وفاق (إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ{45} وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ)[4].

---

(1) =: الكشاف: 1077.
(2) =: إعراب القران الكريم وبيانه: 403/7.
(3) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 411/7.
(4) =: مشاهد القيامة في القران الكريم، سيد قطب: 111.

وهكذا جاءت الآية بأكملها تصف حالهم بأسلوب التهكم والسخرية، وهذا حال المجرمين يوم القيامة فهواؤهم حار وماؤهم حار وظلهم حار، وكل هذا تهكم صريح بالكفرة الفجرة أصحاب السعير، ومما زاد هذه الصورة تعميقا وإيغالاً قوله في نهاية هذه الآيات (هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ) والنزل كما لايخفى هو أول ما يهيأ للضيف وقت قدومه، من التحف والكرامة، وتسمية الزقوم والحميم وهذا الظل وغيره ضيافة ونزلاً تهكم شديد وسخرية لاذعة، تليق بالمكذبين بآيات الله، فان النزل للكرامة، وهذا العذاب للإهانة والتحقير(1).

ومثل هذا النوع من الاحتراس وهذه الصورة من التهكم والسخرية جاء قوله تعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ{ 1} وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ{ 2} عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ{ 3} تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً{4} تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ{5} لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ{ 6} لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ{7}) (الغاشية:1-7). إن كان عز وجل قد وصف حالهم وظلهم ومشاربهم في الآية الأولى، فهنا وصف طعامهم، وهذا الطعام الضريع وهو نبات الشبرق حين ييبس، والشبرق شوك ترعاه الإبل مادام رطباً، فإذا ما يبس وصار ضريعاً فرت منه ولم تقترب منه، لأنه يتحول إلى نبات يشبه أظفار القطط، يابس جاف شائك فضلاً عن تحوله إلى سم قاتل، ولما كان أهل النار من الكفار أقلّ منزلة من البهائم، كان طعامهم أقبح من طعام الإبل، وقيل ان الضريع هو نبات في النار شبه الشوك، أمرّ من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأشد حرا من النار(2)، ومعنى الآية أنهم إن أحسوا بالجوع، وطلبوا الطعام أُتي لهم بالضريع وهو ذلك المرعى السيئ الذي لا تعقد عليه السائمة شحماً ولا لحماً، وإن لم تفارقه إلى غيره ساءت حالها(3). ومما زاد هذه الصورة تهكماً انه تعالى لما وصف لأهل النار طعاماً، وإن كان من الضريع ربما يوهم انه قد يسمن أو وإن لم يسمن يشبع به آكله، احترس بعدها بقوله (لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ) ليدفع هذا التوهم، إذ

---

(1) =: الإبداع البياني في القران الكريم: 335.

(2) =: التفسير الكبير، الرازي: 139/31.

(3) =: حدائق الروح والريحان: 376/31.

ليس من شأنه الإسمان والإشباع، كما هو طعام أهل الدني[1]، فهو لا يدفع جوعاً ولا يفيد سمناً.

وجاء الاحتراس في الآية ليكمل الصورة ويتممها ويدفع الإيهام الحاصل لولاه بوصف هذا الضريع بأنه لا يُسمن ولا يغني من جوع لتشويهه وأنه تمحض للضر فلا يعود على آكليه بسمن يصلح بعض ما التفح من أجسادهم، ولا يغني عنهم دفع ألم الجوع، ولعل الجوع من ضروب تعذيبهم فيسألون الطعام فيُطعمون الضريع فلا يدفع عنهم ألم الجوع[2]. ومما زاد سخرية بهم تنكير (جوع) للتحقير، أي لا يغني من جوع ما، ومما زاد هذا المعنى أيضاً تأخير نفي الإغناء عن الاسمان لمراعاة الفواصل، والتوصل به إلى التصريح بنفي كلا الأمرين، إذ لو قدَّم لما احتيج إلى ذكر نفي الاسمان ضرورة استلزام نفي الإغناء عن الجوع إياه، بخلاف العكس، ولذلك كرر الحرف (لا) لتأكيد النفي[3].

رابعاً. الاحتراس المترقي:

ومن أمثلته في القران الكريم [4] قوله تعالى: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ **وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ** وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } (آل عمران134).

جمعت هذه الآية الكريمة ثلاث صفات رائعات يتدرج فيها المؤمن المتقي ليصل إلى درجة الإحسان وهي أعلى المراتب وأرقاها، وأولى هذه الصفات: الإنفاق في السراء والضراء، وثانيها: كظم الغيظ، الذي هو من الصبر الذي مدحه الله سبحانه وتعالى بقوله: (والله يحب الصابرين) (آل عمران146)، وثالثها: العفو

---

(1) =: تفسير أبي السعود، أبو السعود العمادي: 149/9.

(2) =: التحرير والتنوير: 297/30.

(3) =: حدائق الروح والريحان: 377/31.

(4) ينظر على سبيل التمثيل قوله تعالى في:(آل عمران/ 134)، (الرعد/ 39)، (الحج/ 8)، (الشعراء/227)، (الشورى/51)، (التغابن/14)، (المنافقون/8).

عن الناس بعد الأذى. وجاءت الصفة الثالثة (العافين عن الناس) مكملةً للآية على سبيل الاحتراس، في دفع التوهم الحاصل من أن الإنسان ربما يكظم غيظه ولكنه لا يعفو بل قد ينتقم يوماً ما، فجاء بالصفة الثالثة على سبيل الترقي عن طريق الاحتراس لتدفع هذا الوهم.

فكظم الغيظ، إمساكه وإخفاؤه حتى لا يظهر على صاحبه، وهو مأخوذ من كظم القربة، إذا ملأها وأمسك فمها، وهو تمثيل للامساك مع الامتلاء قال ابن كثير: "أي لا يعملون غضبهم في الناس بل يكفون عنهم شرهم ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل"(1)، ولاشك أن هذه النفس البشرية بطبيعتها تشتهي إظهار آثار الغضب عليها، فإذا استطاع الإنسان إمساك مظاهرها مع الامتلاء منها، دلَّ ذلك على عزيمة راسخة في النفس (2). وكظم الغيظ وحده لايكفي ليرتقي به المؤمن إلى درجة الإحسان ولهذا جاء الاحتراس في العفو ليكمل هذه الصفات ويبين كمال الإيمان عند المحسنين المتمثل في العفو عن الناس فيما اساؤوا به إليهم، فهي تكملة لصفة كظم الغيظ بمنزلة الاحتراس لأنَّ كظم الغيظ قد تعترضه ندامة فيستعدي على من غاظه بالحقّ، فلمّا وصفوا بالعفو عمّن أساء إليهم دلّ ذلك على أنّ كظم الغيظ وصف متأصّل فيهم، مستمرّ معهم. وإذا اجتمعت هذه الصفّات في النفسِ سهل ما دونها لديها، وبجماعها يجتمع كمال الإحسان ولذلك ذيل الله تعالى ذكرها بـ{والله يحب المحسنين}لأنه دال على تقدير أنهم بهذه الصفات محسنون والله يحبّ المحسنين(3). وقد تعاضدت دلالة الاحتراس المتمثلة بقوله تعالى: (والعافين عن الناس) مع مفهوم الغيظ الذي هو شعور وجداني يدلل على (شدة الغضب) مشوباً بحرارة انفعالية تؤدي بالمعنى سلباً نحو اتجاه دلالي غير مقصود نأى القران الكريم عن ذكر مثله فاحترس عنه بقوله (والعافين عن الناس) حتى لا يتبادر إلى المتلقي أن كظم الغيظ يولد دوافع الحقد والضغينة(4).

(1) تفسير القران العظيم: 407/1.
(2) =: التحرير والتنوير: 222/3.
(3) =: م.ن: 222/3.
(4) =: الإطناب في القران الكريم أنماطه ودلالاته، وفاء فيصل اسكندر، كليةالآداب، جامعة الموصل(أطروحة دكتوراه): 149.

والعفو دليل سمو الأخلاق ورجاحة العقل ولهذا جاء الحديث: " **ليس الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إنما الشَّدِيدُ الذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ** "[1]، وفي معنى الآية الكريمة جاءت الأحاديث الشريفة منها قوله عليه الصلاة والسلام: "**من كَظَمَ غَيْظًا وهو قَادِرٌ على أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ الله عز وجل على رؤوس الْخَلَائِقِ يوم الْقِيَامَةِ حتى يُخَيِّرَهُ الله من الْحُورِ الْعِينِ ما شَاءَ**" [2]. بل إنَّ الإنسان إذا تحمل أذى الآخرين نال ثواباً عظيماً يدل عليه قول النبي (ﷺ): "**مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَعْظَمُ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ**"[3]، فإذا نجح المسلم بالترقي من مرتبة كظم الغيظ إلى العفو جازها إلى المرتبة والدرجة الأخيرة في الدين (الإحسان) الذي يحبه الله ويحب أهله، ولهذا ختمت الآية بقوله (والله يحب المحسنين).

ومن محاسن الآية الطباق بين (السراء) و(الضراء) والذي وسع من دائرة الإنفاق حال الرخاء واليسر، وحال الضيق والعسر لا يخلون بان ينفقوا في كلتا الحالتين ما قدروا عليه من كثيرٍ أو قليل، ولهذا افتتح الآية بذكر الإنفاق لأنه اشق على النفس وأدله على الإخلاص، ولأنه كان في ذلك الوقت أعظم الأعمال للحاجة إليه في مجاهدة العدو ومواساة فقراء المسلمين[4].

وفي قوله تعالى (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) العدول إلى صيغة الفاعل (الكاظمين –العافين) للدلالة على الاستمرار والدوام، في مقابل مجيء الإنفاق في بداية الآية بالجملة الفعلية (ينفقون)، لان الإنفاق أمر متجدد، ولما كان كذلك عبر عنه بما يفيد التجدد والحدوث[5].

---

(1) صحيح البخاري، باب الحياء، حديث رقم (5763): 2267/5.

(2) سنن أبي داود، أبو داود، باب كظم الغيظ، حديث رقم (4777): 248/4.

(3) سنن ابن ماجه، باب الحلم، حديث رقم (4189): 1402/2.

(4) =: الكشاف: 195.

(5) =: تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القران: 185/5.

ومثل هذه الآية جاء قوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ **فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ** حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }البقرة 109، إذ جاء الاحتراس أيضاً بطريقة الترقي بقوله (اصفحوا) وهو مرتبة أعلى وأرقى من العفو؛ لان العفو هو ترك عقوبة المذنب، وأما الصفح فهو مصدر صفح صفحاً إذا أعرض، لان الإنسان إذا اعرض عن شيءٍ ولاَّه من صفحة وجهه، وصفح وجهه أي جانبه وعرضه، فالصفح هو عدم مواجهة المذنب بذنبه لوماً أو تثريباً، لذلك فالصفح ابلغ من العفو [(1)]، قال الراغب: "والصفح: ترك التثريب، وهو أبلغ من العفو، ولذلك قال: (فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ)، وقد يعفو الإنسان ولا يصفح،..... وصفحت عنه أوليته مني صفحةً جميلة معرضاً عن ذنبه"[(2)].

وبذلك تتبين بلاغة الاحتراس بان المخاطبين وهم المؤمنون الكرام هم قدوة في الفضائل ومكارم الأخلاق، وان من سماتهم وشمائلهم مخالفة ما تميل إليه النفوس بالجبلة من الانتقام والبطش بأعدائهم، فالاحتراس يبين صبرهم على إيذاء أعدائهم طاعة لله وصبراً في سبيله، واستجابة لأوامره التي تربيهم وتتدرج بهم في مكارم الأخلاق.

خاتمة البحث ونتائجه:

توصل البحث إلى نتائج، نجملها بما هو آتٍ:

- تبين للبحث أنَّ فن الاحتراس ورد عند علماء البلاغة قديماً بتسميات متعددة مثل التكميل والاحتراز فضلاً عن الاحتراس، ولكنها تتشابه في المضمون والمفهوم إلى حدّ التوحد في المعنى، فضلاً عن أن الاحتراس لم يرد عندهم في بابٍ مستقل، بل كانوا يعدونه من التتميم ومعانيه، ولم يستقل هذا الفن إلا عند القزويني (ت739هـ).

---

(1) =: التحرير والتنوير: 671/1.

(2) مفردات ألفاظ القران، الراغب الأصفهاني: 486.

- كشف البحث عن الفرق بين الاحتراس والتتميم، وسجل أهم تلك الفروق وهي: أن الاحتراس يكون في الكلام بدفع التوهم وفساد المعنى، في حين أن التتميم يكون لنكتة غير دفع التوهم في الكلام، وان الاحتراس يجعل الكلام التام كاملاً، وان التتميم يجعل الكلام الناقص تاماً.
- الاحتراس فن أصيل وطريقة من طرق الإطناب استعملته العرب في نثرها وشعرها لأغراض بلاغية متعددة ما كانت لتتحقق لولا فن الاحتراس. وازداد هذا الفن أصالةً وحضوراً وفناً في القران الكريم.
- نظر البحث إلى فن الاحتراس في القران الكريم من حيث مضامينه لذلك قسمه إلى أربعة أقسام هي الاحتراس الضدي، والتكميلي، والتهكمي، والمترقي، في حين نظر إليه البلاغيون من حيث موقعه في وسط الكلام وآخره لذلك جعلوه ضربين حسب موقعه. ولا يخفى أنَّ التقسيم الرباعي الذي ارتأينا هو أجدى في دراسة الاحتراس على صعيد الدلالة وجمالياته، من التقسيم الثنائي الموقعي عند البلاغيين.
- تبين للبحث أنَّ بلاغة الاحتراس تتركز في توجيه مسار المعنى ودفع كل إيهام يعمل على فساده، فالاحتراس القرآني يوجه الكلام نحو المقصود ويطرد كل وهم يتوهمه المخاطب وهو يتلقى الآيات التي تشكَّل فيها الاحتراس، فضلاً عن أنَّ الاحتراس يعمّق الدلالة ويزيدها توكيداً ووضوحاً.
- **وآخر دعوانا أن الحمدُ لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً**

The Ihtiras in the Glorious Quran: A Rhetorical Study

Asst. Prof. Dr. Ahmad Fathi Ramadan*

Adnan A. Al-Asaad**

Abstract

Al-Ihtiras is an art among the rhetorical digressive arts usually found in Arabic poetry and the Glorious Quran in particular. The rhetoricians usually classify Al-Ihtiras into two types according to its position in speech. The first occurs in the medial position and the second in the final position.

The present study classifies Al-Ihtiras in terms of meaning into four types: Oppositive Ihtiras, Complementary Ihtiras, Ironic Ihtiras and Supletive Ihtiras.

The main function of Al-Ihtiras is to direct the path of meaning avoiding anything that may lead to misinterpretation. The Quranic Ihtiras directs the meaning to the exact meaning without leaving a room for misinterpretation. Furthermore, Al-Ihtiras deepens the meaning and increases its emphasis and clarity.

* Dept. of Arabic/ College of Arts/ University of Mosul.

** Dept. of Islamic Education/ College of Education for Girls/ University of Mosul.